تحديات تشكيل ثقافة التغيير في العراق
(المعوقات الذاتية للدور الاعلامي)

أ.م. د جليل وادي حمود

كلية الفنون الجميلة / جامعة ديالى

مقدمة

لم تكن فكرة التغيير بغائبة عن ذهن الشعب العربي ، بل كانت هاجسه اليومي ، ومصدر قلقه على المستقبل المجهول الذي لايرى له افقا محددا ،فقد امضى عقودا وهو يتطلع الى حياة هانئة رغيدة ،يتمتع فيها بحريته وكرامته، لكن تلك الفكرة كثيرا ما قمعت في مهدها ذاتيا نتيجة الخوف من بطش السلطة ، فظلت حبيسة الاحاديث الضيقة بعيدا عن انظار النظام العربي وادواته ، بأنتظار سنوح فرصة مناسبة .

وعندما سنحت الفرصة في الربيع العربي هاجت الجموع ، مستحضرة جميع آلام الماضي بانتفاضات عارمة بحثا عن التغيير الذي تمثلت صورته باسقاط النظام السياسي، من دون ان تعرف تحديدا الى اين هي ماضية بعد ذلك .

من ذلك يتبين ان التغيير كان حاجة ملحة ، لكن وعيا بشكل التغيير وكيفياته وابعاده لم يتبلور بعد، ما يعني ان ثقافة مستنيرة لم تتشكل بما يتوافق مع التغيير المنشود الذي يراد له ان يكون سلميا من دون خسائر، وفاتحا ابواب المواكبة للاخر ، ومتصديا للامراض الاجتماعية المتوطنة في الجسد الاجتماعي ، ومشبعا للحاجات الاساسية ، ومشيعا لمفاهيم المواطنة والتسامح والحريات وسيادة القانون ودولة المؤسسات وغيرها ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لا في العراق الذي اسقطت نظامه السياسي قوة محتلة ، ولا في تونس او مصر او اليمن الذي سقط النظام فيها بأيد وطنية ، فما حدث بعد اسقاط الانظمة لم يكن بأحسن حالا من قبلها ، ونظن جازمين ان السبب في ذلك هو غياب ثقافة التغيير في مجتمعاتنا ، ذلك ان غياب ثقافة التغيير هي التي جعلت من الربيع العربي (تغيرا) وليس (تغييرا) .

والسؤال الذي لابد من طرحه هنا : هو لماذا لم تتشكل ثقافة التغيير في المجتمع العربي بالرغم من ان قساوة الواقع العربي جعلت من فكرة التغيير حاضرة في الذهن العربي منذ وقت ليس بالقصير ؟. واذا كانت وسائل الاتصال الجماهيرية من بين ابرز الادوات التي استعانت بها القوى المحركة للربيع العربي ، فأين كانت تلك الوسائل من ثقافة التغيير قبل ذلك ؟ هل ثمة معوقات حالت من دون ان يؤدي الاعلام وظائفه الثقافية، مع انه مؤسسة للتنشئة غاية في الاهمية ، هذه الاسئلة وغيرها ، هي التي دفعتني لاجراء هذا البحث ، في هذه المرحلة التي لم تزل فيه رياح الربيع العربي على اشدها ، لتشكل انعطافة تاريخية في المسيرة العربية .

المبحث الاول : الاطار المنهجي والنظري

أــ مشكلة البحث

اذا كان التغيير يعني عملية التحول المدروس والمخطط له من حالة راهنة الى حالة اخرى من حالات التطور المتوقعة ، اوهو ردة الفعل التي تتخذها المنظمات المختلفة لمواجهة التغير في البيئة المحيطة (١) ،فان المجتمع العراقي بواقعه الراهن يمكن وصفه بالركود والسكونية ، وهي حصيلة تراكمات من مخلفات الادارة غير الرشيدة في مجالات السياسة والاقتصاد ، فضلا عن شيوع نمط ثقافي سائد ينطوى على دفاعات ذاتية مغذية للمغايرة غير المنتجة ويعوقها من تمثل القيم المستحدثة التي تنتجها التطورات المعنوية والمادية التي يشهدها العالم المتحضر ، بشكل جعل المجتمع عرضة لحالات من (التغير) المتقاربة في اوقات معينة والمتباعدة في احيان كثيرة ، لكنها بالمقابل حالت من دون نشوء وتبلور انساق منظمة من الجهد المجتمعي يكون بمقدورها التصدي للواقع غير المرغوب فيه باتساعاته واشكاله المتنوعة .ما يعني غيابا لثقافة (التغيير) التي من شأنها تحقيق مصالح المجتمع من خلال ارساء نظم واشكال جديدة من العلاقات في المجالات المختلفة .

ومع ان الساحة العراقية قد ألفت الفعالية الاعلامية منذ وقت ليس بالقصير ، اذ تعود بداياتها الاولى الى اواخر ستينيات القرن التاسع عشر ، الا ان تلك الفعاليات لم تتمكن من اداء الادوار التي يفترض القيام بها والمتمثلة بتنمية ثقافة التغيير في المجتمع ، اذ ظل الدور الاعلامي بكافة اشكاله المكتوب والمرئي والمسموع ضيقا في المجالين السياسي والاقتصادي ، وخجولا في اطار الثقافة الاجتماعية ، ومقموعا ذاتيا ازاء المؤسسة الدينية ، اما وظائفه الثقافية الاخرى فظلت حبيسة الجوانب الادبية من دون ان تمتد الى الثقافة السائدة التي هي احوج ما تكون الى التغيير من غيرها لارتباطها بنمط التفكير العلمي الذي يراد له الشيوع ، وفي هذا الجانب تكمن مشكلة البحث التي تعبر عن ظاهرة يكتنف الغموض بعض جوانبها ، ما يستدعي الاجابة عن الاسئلة الاتية : ما العوامل التي حالت من دون ان يؤدي الاعلام العراقي لواحدة من ابرز وظائفه الجوهرية التي تتمثل بتشكيل ثقافة التغيير وتنمية الوعي الجماهيري بالتغيير؟ .وما طبيعة البيئة السياسية والاجتماعية التي يعمل الاعلام العراقي في اطارها ؟.

ب ــ اهمية البحث

تكمن اهمية البحث في انه يتعلق بالوظائف والادوار المهمة التي يمكن للاعلام ان يؤديها في المجتمع ، بوصفه واحدا من مؤسسات التنشئة التي يعول صناع القرار عليها كثيرا في احداث التحولات المجتمعية في الاطر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وتكييف المجتمع بما يتوافق مع هذه التحولات التي يراد بها النهوض بالمجتمع بشكل يواكب فيه التطورات المتسارعة التي يشهدها العالم في المجالات الحضارية المختلفة ، ذلك ان بمقدور الاعلام اذا احسن استخدامه ان يشكل اتجاهات ايجابية لدى المجتمع ازاء عمليات التنمية التي تقوم بها الحكومات ، وخلق رأي عام مستنير تجاه القضايا المصيرية للدولة ، فضلا عن التصدي لمجموعة المشكلات التي يتعرض لها المجتمع،وتمتين نسيجه الاجتماعي [٢] ، اذ غدت وسائل

الاعلام المحرك الفاعل في مختلف شؤون الحياة المعاصرة التي لايمكن القفز عليها او عدم الاستفادة مما تقدمه من وظائف ،عليه فان الوقوف على معوقات وسائل الاتصال الجماهيرية في اداء ادوارها في عملية التغيير ، ومساندة مؤسسات التنمية الاخرى كالمنظومة التعليمية ومؤسسات المجتمع المدني وغيرها في بلوغ اهدافها ، يعد عملا مهما للغاية ، لبحثه في الكيفيات الاعلامية التي من شأنها احداث التغيير الذي غدا مطلبا جماهيريا بسبب الواقع المشين الذي تعيشه .

واذا كانت الثقافة هي الكل المركب من العادات والتقاليد والاعراف والقيم والعقائد والقوانين وغيرها من العناصر الثقافية [٣] ، فذلك يعني ان جميع المجتمعات تنطوي على ثقافة معينة ،اذ لاوجود لمجتمع بلا ثقافة ، ويشير مضمون هذا التعريف في جانب كبير منه الى الثقافة السائدة او الفاعلة راهنا في المجتمع ، لكن الثقافات تتباين في مستوى تطورها الحضاري من مجتمع الى اخر، وعلى هذا يمكن ان نصنف الثقافة الى نوعين احدهما مستنيرة والاخرى متخلفة ، وطالما التغيير يستدعي ثقافة مغايرة للثقافة السائدة ، فان المجتمعات النامية التي يقع العراق من ضمنها احوج ماتكون للتغيير الثقافي ، لان النمط الثقافي المهيمن عليها يعد نمطا متخلفا عن ذاك الذي يسود العالم ، او ان العناصر البالية فيها تفوق العناصر السامية او النبيلة ، ما يشكل المعوق الابرز لعملية التغيير ، بخاصة ان العراق يتوافر على اغلب المقومات المادية التي يقتضيها التغيير ، لذلك فان البحث في عملية التغيير الثقافي او استبدال قيم قديمة او متخلفة باخرى مستحدثة تتوافق مع التغيير المنشود الذي يراد للمجتمع بلوغه يعد حاجة اساسية للمجتمع العراقي ، ذلك ان تشكيل ثقافة مغايرة للثقافة السائدة او لبعض من عناصرها يعد بتقديرنا المدخل الاساسي للتغيير . فلا تغيير من دون ثقافة مستنيرة ، اذ بدون الثقافة المستنيرة تغدو جميع التبدلات التي يمر بها المجتمع هي حالات (تغير) وليس (تغيير) ،بسسبب اتسام الثقافة المستنيرة بخصائص تجعل من التغيير ممكن الحصول كالمرونة وعدم التطرف والعقلانية والتفكير العلمي وغيرها من الخصائص .

ومع ان العراق لم يشهد خلال تاريخه الحديث عملية (تغيير) مخطط لها علميا على المستويات كافة ،بل كان عرضة لجملة من (التغيرات) ، وما يعنيه ذلك من تداعيات سلبية على الحياة العراقية ،وعلى الرغم من اهمية هذه الحقيقة ، الا انها كما يبدو لم تكن حافزا او مثيرا لطرح الاسئلة لاجراء بحوث للتقصي عن اسباب هذه الظاهرة من قبل المشتغلين في المجال الاكاديمي بشكل وافي ، اذ تناولت اغلب الدراسات هذه الحقيقة بشكل عرضي من دون الغوص في عمقها ، كما لم تدرسها من منظور مفهوم التغيير بوصفه جهدا علميا منسقا ، فضلا عن ان اغلبها جرى في اطار سياسي واجتماعي ، بينما انعدمت في الاطار الاعلامي ، اذ كان الجهد البحثي الاعلامي في هذا المجال غائبا تماما ، واذا كنا نتفق مع القائلين بأن العامل السياسي كان حاكما ومفصليا في حالة التأخر التي يعيشها العراق ، بمعنى عزو غياب عملية التغيير لاسباب سياسية في الغالب، الا ان ذلك لايبرر عدم البحث في معوقات العوامل الاخرى من تأدية ادوارها في عملية التغيير، كالعامل الاعلامي ، مع اننا لانقفز على التأثيرات السياسية التي تطول هذا العامل ، لذلك يكتسب هذا البحث اهميته من اشتغاله في مجال الاعلام العراقي من خلال التقصي عن المعوقات التي تحول من دون اداء وظيفته في تشكيل ثقافة التغيير

ج ــ هدف البحث

يهدف هذا البحث الى الاجابة عن السؤال الاتي:

ـ ما المعوقات الذاتية لدور الاعلام في تشكيل ثقافة التغيير في العراق ؟

وفي اطار الاجابة عن هذا السؤال يقود البحث الى تكوين تصور موضوعي عن طبيعة البيئة السياسية والثقافية التي يعمل الاعلام العراقي الراهن في اطارها ، كما يعطي توصيفا واقعيا للحركة الاعلامية في العراق بعد الاحتلال الامريكي .

د ــ منهج البحث

بالرغم من كثرة الدراسات والبحوث التي تناولت دور وسائل الاتصال الجماهيرية في تشكيل الثقافة على مختلف انواعها ، الا ان تلك الدراسات لم تتناول ثقافة التغيير بالقدر الكافي عربيا، كما انها لم تتطرق الى هذا الشأن في العراق تحديدا ، ذلك ان مفهوم ثقافة التغيير يعد من المفاهيم المستحدثة بالنسبة للثقافة العراقية ،وعليه يمكن القول بأن الوقوف على المعوقات التي تحول تلك الوسائل عن اداء وظيفتها في تشكيل هذا النوع من الثقافة ، بأنه من الموضوعات الجديدة على الجهد البحثي العراقي،وتقتضي الظواهر التي لم تبحث من قبل القيام ببحوث استطلاعية ، ذلك ان هذا النوع من البحوث يزيد من التعرف على الظاهرة المرغوب بدراستها في المستقبل ، والتعرف على المجال الذي تجري فيه الدراسة ، فضلا عن زيادة درجة ادراك الباحث للمشكلة التي يتصدى لدراستها واهم المتغيرات المؤثرة فيها ، واكتشاف العلاقات بين المتغيرات [٤] ، واستنادا لذلك يصنف هذا البحث على البحوث الاستطلاعية بحسب نوعه .فهو يدرس الحالة العراقية ، ودراسة الحالات تتيح للباحثين المرونة الكافية ، وتعفيهم من الالتزام الصارم بقواعد منهجية معينة ، ذلك ان دراسة الحالة تهدف الى التعرف على مجال المشكلة اساسا [٥] ، وعليه اعتمد الباحث على الوصف الموضوعي المبني على الملاحظة بالمشاركة ، بوصف الملاحظة بالمشاركة اداة بحثية منهجية تقوم على ملاحظة انماط السلوك البشري والافراد والاحداث وتدوينها للحصول على معلومات عن ظاهرة معينة [٦] ، وفي هذا الاطار استفاد الباحث كثيرا من تجربته الاعلامية الميدانية التي امتدت الى اكثر من ربع قرن شغل خلالها العديد من مواقع المسؤولية ، وعاصر فيها نظامين اعلاميين مختلفين ، النظام الاعلامي الشمولي المستند الى نظرية المسؤولية الاجتماعية ، والنظام الاعلامي التعددي المستند الى نظرية الديمقراطية ،آخذا بالحسبان ابرز خصائص النظاميين ، كالتضييق على الحريات الاعلامية في الاول ، والانفلات الاعلامي في الثاني ، وتأثير كل منهما على دور الحركة الاعلامية في الاطار الثقافي ، بضمنه تشكيل ثقافة التغيير.

هـ ــ حدود البحث

اتخذ هذا البحث من الاعلام في العراق مجالا مكانيا وموضوعيا، ومن المدة التي اعقبت التغيير السياسي في عام ٢٠٠٣ مجالا زمنيا . وما يبرر اختيار المجالين هو ان الباحث من العراق ومتخصص في الاعلام ، فضلا عن الحقيقة التي تشير الى ضيق مساهمة الاعلام العراقي في التنشئة الثقافية وانعدامها في اطار ثقافة التغيير على اختلاف الانظمة الاعلامية التي خضع لها ، الامر الذي يوجب اخضاع هذه المسألة للدراسة بحثا عن تفسيرات محددة .

المبحث الثاني

المعوقات الذاتية للدور الاعلامي في تشكيل ثقافة التغيير

يتعرض الاعلام العراقي في اداء دوره في المجال الثقافي بضمنه تشكيل ثقافة التغيير لجملة من المعوقات الذاتية والموضوعية ، وسيقتصر هذا المبحث على المعوقات الذاتية وهي :

أ ـ تراجع دور النخبة الاعلامية

مع ان اتفاقا نهائيا بين المشتغلين في العلوم الاجتماعية لم يحصل بشأن تعريف النخبة ، الا انها بالمجمل تشير الى ان النخبة مجموعة من الافراد التي تقوم بوظائف مهمة في المجتمع ، وان وجهات نظرها وتفضيلاتها هي التي تسود في حالات الاختلاف حول القضايا المهمة ، وتستمد النخبة سيطرتها على عامة الناس من تميزها بارتفاع مستوى التعليم والكفاءة والمعرفة والخبرة[٧] ، وعلى هذا شكلت النخبة الاعلامية في العراق منذ بدايات العمل الاعلامي في منتصف القرن التاسع عشر احدى المجموعات المتميزة بتأثيراتها في الواقع العراقي اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا ، بالرغم من انها ظلت لسنوات طويلة مندرجة في اطار النخبة الثقافية الاكثر حضورا والاعمق تاريخا .

وظل المجال الاعلامي بالرغم من تنوعه الذي يتيح لنخب اخرى العمل فيه او ممارسة ضغوطات عليه ، عصيا على تلك النخب الا بحدود معينة ، باستثناء افراد النخبة المثقفة التي ترعرع الاعلام بين احضانها بالاصل قبل ان تتضح ملامح النخبة الاعلامية بعد اتساع العمل الاتصالي الجماهيري الذي فرض اشتراطات مهنية يتعذر على كثيرين امتلاكها من دون خضوعهم لتأهيل تقتضيه هذه المهنة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالجوانب الفنية والتقنية . وبدا واضحا في العقود الاخيرة وبخاصة بعد الاحتلال الامريكي للعراق ان الادوار التي تقوم بها النخبة الاعلامية العراقية قد شهدت تراجعا كبيرا ، ولهذا التراجع اسباب عديدة ، يقف في مقدمتها تفكك النخبة ، وتأثرها بالبيئة العراقية التي تعاني تأزما سياسيا مزمنا .

ان واقع الحركة الاعلامية في العراق يشير الى تبدد النخبة الاعلامية وتلاشيها ، وان بقاياها لاتمتلك في الوقت الراهن الشروط التي من شأنها اعادة التماسك لهذه المجموعة بما يحيي الادوار الجوهرية المنتظرة منها ، والتي كانت حتى عقد الستينيات من القرن الماضي تمارسها على وفق رؤية واضحة لعملية النهوض بالمجتمع والارتقاء بثقافته وتمكينه من المشاركة الفاعلة في صناعة مستقبله . ويراد بالاشتراطات تلك العوامل التي تقتضيها عملية تشكيل النخبة بما يمنحها القدرة على التأثير سواء في الوسط الجماهيري او في غيرها من النخب ، ونورد هنا مثالين لعوامل تشكيل النخبة الاعلامية :

اولا ـ الامكانات العلمية

بالرغم من مواكبة الاعلام العراقي الحثيثة للتطورات التقنية التي شهدها مجال اشتغاله ، اذ كان من اوائل الدول العربية التي اطلقت البث الاذاعي والتلفزيوني [٨]، الا انه لم يتمكن

بالقدر نفسه من استثمار حصيلة الجهد العلمي في بناء مضامين رسائله واشكالها، فضلا عن عدم الاستناد الى القواعد العلمية في تشكيل مؤسساته ، ولم يقتصر الامر عند هذا الحد ، بل انه لم يتمكن من الاستفادة القصوى من الامكانات العلمية المتوافرة ، بخاصة ما يتعلق منها بتنمية وادارة الموارد البشرية ، اذ كثيرا ما ضيق من مساحة عمل العناصر المؤهلة علميا والمتمتعة بثقافة رصينة ، بينما وسع من اعتماده على العناصر غير المؤهلة لطبيعة العمل الاعلامي ، وغير الواعية تماما لوظيفته ورسالته السامية ، ومن المؤكد ان عملا بهذه الخطورة جاء نتيجة العشوائية المهيمنة على الاعلام ، والاليات غير المحكمة التي تسوده ، وافتقاد قياداته للتخصص العلمي ، في وقت اصبح فيه الاعلام محركا اساسيا في الحياة المعاصرة .

ثانيا ـ الخصائص الذاتية

لكي يطلق على اية مجموعة بانها نخبة لابد ان تتحلى بالسمات الاتية : (الذكاء ، الإبداع ، الاجتهاد ، الطموح) وهنا لابد من طرح تساؤل مفاده الى اي مدى تتجسد هذه السمات في المجموعات الفاعلة في المشهد الاعلامي الراهن ، بخاصة وان هناك صعوبة علمية في اطلاق احكام تعميمية بهذا الشأن ، لكن يمكن الدخول لهذه المسألة من باب تقييم المخرجات ، ففي المخرجات يتجسد الابداع الذي هو بطبيعة الحال حصيلة الذكاء والاجتهاد والطموح .

ان محاكمة اشكال ومضامين الرسائل التي تبثها وتنشرها وسائل الاعلام وقدراتها التأثيرية على وفق المعايير الابداعية بوصف الرسائل الاعلامية تمثل مخرجات المنظومة الاعلامية ، يتبين ان نسبة كبيرة منها لاتنطبق عليها معايير الجودة ، وبالتالي لايمكن القول انها رسائل مبدعة بالمطلق ، وعندما لايتوافر الابداع في الرسالة الاعلامية فأنها تخسر جزءا كبيرا من تأثيراتها في الجمهور ، واستنادا الى هذا المعيار الذي يعكس جانبا لايستهان به من اداء المنظومة الاعلامية ، فأن النخبة الاعلامية تفتقد الى بعض السمات التي تجعل منها نخبة فاعلة ومؤثرة في المجتمع كما هو حال النخب المنافسة ، الامر الذي ينعكس سلبا على اواصر تماسكها.

اما ما يتعلق بتأثر هذه النخبة بالتأزم السياسي المزمن الذي يتعرض له العراق ،فقد كان لذلك اوجه عديدة منها ما يتعلق بعمل هذه النخبة في اطار النظام الشمولي بدءا من عقد السبعينيات حتى الاحتلال الامريكي في عام ٢٠٠٣ ، الذي تحجمت فيه مبادرة النخبة ، اذ لم يتسن لها التعبير عن رؤاها المختلفة عن رؤية النظام السياسي ، ومع ان اجواء الحرية بشكلها القانوني قد توفرت بعد تغيير النظام السياسي ، لكنها واجهت تحديات خطيرة في تطبيقاتها الميدانية ، بسبب من الضغوط السياسية والاجتماعية والدينية والامنية ، اذ لم توفر هذه التحديات بيئة آمنة للعمل الاعلامي ، بشكل يكون بمقدور الاعلاميين فيه ممارسة نشاطهم من دون شعور بالخوف من تعرض حياتهم او عائلاتهم للخطر، اذ فقدت الاسرة الاعلامية العراقية حتى الان حوالي (٢٥٩) صحفيا بحسب احصائية مرصد الحريات الصحفية في العراق[٩] ، وبذلك يمكن القول ان مستوى الحرية الذي تتمتع به المؤسسات الاعلامية مرهون بمستوى الامن المتحقق.

فلا حرية اعلامية من دون أمن، كما ان غياب الامن يعني اتساع مساحة حرية الفوضى ليس للعبث في الجوانب المادية للحياة الانسانية فحسب، بل تطول تأثيراتها الجوانب الفكرية والثقافية، وهذا ما اتضح جلياً في المضمون غير المتعارض مع ما تريده القوى السياسية والدينية المهيمنة على المشهد العراقي ، بحيث يمكننا القول ان الخطاب الاعلامي التنويري كان شديد الضيق ،

الامر الذي لجأت معه النخبة الاعلامية صاحبة المشروع النهضوي الى مغادرة المشهد خوفا على حياتها ويأسا من التغيير ، تاركة الحركة الاعلامية لملاكات غير مؤهلة ولاتمت الى الثقافة والرسالة الاعلامية بصلة الا بحدود ضيقة جدا . وبالنتيجة فان تفكك هذه النخبة وتبعثر ادوارها وعدم تأدية وظائفها بالصورة المطلوبة يعد نتيجة حتمية لافتقادها المقومات الاساسية التي تتيح لها الصمود ازاء تحديات عديدة تتعرض لها وفي مقدمتها تحديات النخب اخرى .

ب ـ هشاشة المنظومة الاعلامية

لكي يتسنى للاعلام اداء دوره بفاعلية في تشكيل ثقافة التغيير ، لابد من توافر الملاكات الخبيرة في المجال الاعلامي والمؤهلة بما يتناسب مع الوظائف المهمة التي يقوم بها ، ذلك ان الخبرة والمهارة تؤدي دورا حيويا في جعل الرسالة الاعلامية فاعلة ومؤثرة[١٠] ، لذا فأن المؤسسات الاعلامية الراقية تسعى جاهدة لجذب الكفاءات المشهود لها ، بل ان بعضها يستعين بخبرات غير محلية كما هو الحال في الكثير من الوسائل الاعلامية الخليجية ، وهذا ما جعل هذه المؤسسات تحقق قفزات نوعية في مستوى ادائها ،وبالتالي تبوءها صدارة الاعلام العربي .

وبهذا الصدد اتسمت المنظومة الاعلامية العراقية بالهشاشة ، لذلك غالبا ما كان الاعلام مجالا مخترقا سواء على مستوى القائمين عليه او العاملين فيه ، اذ شكل الطارئون على هذه المهنة نسبة كبيرة ، ما اغلق فرص العمل امام متخصصين اكفاء ، ذلك ان نسبة كبيرة ممن يعملون في الاعلام لاتتوافر لديهم الحصيلة المعرفية الكافية التي تؤهلهم لاداء دور اعلامي مناسب[١١] ، بل منهم من يفتقد للادوات التي لايمكن للاعلام القيام بدونها او القفز فوقها كاللغة والاسلوب وغيرهما ، كما ان الكثير من الجهات التي قدر لها اطلاق وسائل اعلامية لاتمت لهذه المهنة بصلة ، بل دفعتها مغريات عديدة لامتهان هذا المجال بضمن ذلك المغريات الاعلامية وامكانية التأثير في صناع القرار وتوطيد علاقات بمراكز القوى ، ويعني ذلك ان نسبة لايستهان بها من العاملين في مجال الاعلام لم تتلق ما يكفي من التأهيل[١٢] ، ومع ان القائم بالاتصال العراقي يشترك مع زميله العربي في انعدام فرص التدريب او التعامل معها بنظرة ضيقة[١٣] ، الا ان هذه الفرص تكاد تكون معدومة في العراق ، فصار المجال الاعلامي مجرد شكل يفتقد الى الجوهر ، فضلا عن عدم انطوائه على حقيقة دوره ، ما افقد هذه المنظومة مهنيتها والتجاوز على سياقاتها المعروفة ، ولهذا فأن قصورا واضحا بدا في حركة الاعلام ازاء ما يجب القيام به ، وعليه اتجه نحو مسارات سطحية من دون ان يقدم معالجات عميقة لمجموعة المشكلات التي يتعرض لها المجتمع او محاولة تشكيل ثقافة جديدة او عناصر بديلة للعناصر الثقافية البالية التي تنطوي عليها الثقافة السائدة ، وبدلا من ان يسهم في تشكيل ثقافة مستنيرة ، مارس تسطيحا ثقافيا كان من ابرز نتائجه تمزق النسيج الاجتماعي وانخفاض مستوى الولاء الوطني والتميع مع ثقافات فرعية واخرى ضيقة ، واللامبالاة ازاء التحديات المختلفة

ومن المؤكد ان غياب معايير دقيقة وواضحة لمهنة الاعلام ، وانتهاك السياقات ، وافتقاد التشريعات المناسبة وغيرها من العوامل اسهمت بفاعلية في هشاشة المنظومة الاعلامية . فضلا عن صناعة رسائل اتصالية تعوزها الكثير من مقومات التأثير والاقناع .

ج ـ ضعف فاعلية الرسالة الاعلامية الثقافية

لاقيمة لاي اتصال بلا فاعلية ، والفاعلية تعني النجاح في احداث الاثر المطلوب في مستقبل الرسالة ، ذلك ان الاتصال من وجهة نظر المرسل يعني العملية التي يبحث بها عن طريقة للتأثير في معارف المستقبل بأسلوب مرغوب به عبر استخدام رموز معينة[١٤] ، وعليه لايمكن تشكيل ثقافة التغيير في وسط اجتماعي معين مالم تكن برامج مؤسسات التنشئة فاعلة .

ومع ان التحول الذي شهده العراق بعد احداث التغيير خلق بيئة اعلامية مغايرة لاجواء سابقة عمل فيها القائم بالاتصال ، وان هذه البيئة انطوت على عناصر اساسية أسهمت في توفير مناخات مناسبة بحدود معينة لانتاج رسائل اتصالية فاعلة في احداث تأثيرات مختلفة ، لكن بالمقابل وفي ضوء كم الرسائل المتدفق تكونت مجموعة من الملاحظات التي تشير الى ان وسائل الاعلام العراقية حققت نجاحات معينة في اداء وظائف الترفيه والاخبار ، الا انها اخفقت في اطار الوظيفة التثقيفية والتعليمية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، ويقف في مقدمتها تشكيل ثقافة تحمل المجتمع على التطلع الى التغيير ، بخاصة وانه يعيش واقعا صعبا يفترض التغيير.

ومع ان احداث تغييرات اجتماعية وسياسية ليس بالامر الهين ، ذلك ان اغلب الدراسات المعنية بتأثيرات وسائل الاعلام اشارت الى ان عمل وسائل الاعلام غالبا ما يندرج في اطار تدعيم الاتجاهات القائمة ، بينما يأخذ خلق اتجاهات وقيم جديدة وقتا ليس بالقصير بحسب النتائج التي توصلت لها بحوث ميدانية عديدة [١٥] ، الا ان ذلك يجب ان لايحول من دون الشروع بهذا الاتجاه ، فالتغيير لن يحدث اذا لم ينخر الاعلام في جسد الثقافات المتخلفة .

واذا كان تشكيل ثقافة التغيير يستدعي خلق اتجاهات ومنظومة قيمية مغايرة لتلك التي تبناها المجتمع في مراحل سابقة ، فأن ذلك يفترض بوسائل الاعلام التصدي لهذه المسألة المهمة من خلال بناء رسائل اعلامية مدروسة بدقة لارساء تلك الثقافة ، فضلا عن بلورة رأي عام مستنير ازاء قضايا بعينها ، والتعرف على حدود فاعلية هذه الرسائل ، والى اي مدى تمكنت من غرس المفاهيم المستحدثة في نفوس الجماهير وعقولهم ، وبعكسه فأن كم الرسائل المبثوثة لايعني انها حققت ما يرجى منها ، لاسيما وان اتمام عملية الاتصال لايعني انها كانت فاعلة ، بخاصة ان تحقيق الاتصال الجماهيري الفاعل يقتضي توافر شروط عديدة على مستوى القائم بالاتصال والرسالة والوسيلة المستخدمة ، فهذه العناصر اضافة الى الجمهور تشكل محور العملية الاتصالية ، وان اي خلل يطول احدها يؤثر سلبا في سريان العملية ، الامر الذي يحد من فاعليتها[١٦] .

د ـ صلادة الثقافة السائدة

اذا كان المجتمع ينظر الى الاشياء بثقافته وليس بعينيه، عند ذاك ندرك ان المدخل الحقيقي للارتقاء بالمجتمع ينطلق من النهوض بثقافته، ذلك انها الطريق الذي لابد منه اذا ما اريد تسلق سلم التطور ماديا ومعنويا،لكن الثقافة السائدة في العراق تعاني جملة من الامراض المزمنة ، وكثيرا ما عرضت حياة افراد المجتمع الى مخاطر جمة ، اذ سالت انهار من الدم بسبب سيادة

ثقافة غير مستنيرة كانت قد هيمنت على شريحة او طائفة او نخبة او افراد من المجتمع، ما حملهم على رسم صور نمطية سوداء او القيام بأفعال عدائية ضد شركاء في الوطن.

ومن الامراض المزمنة على سبيل المثال لا الحصر (شيوع التفكير الخرافي ، التطرف، اتساع مساحة الوهم، الانبهار بالأشكال، ،وغيرها) وقد توطنت هذه الامراض في الثقافة العراقية نتيجة عقود من العمل العشوائي ،ذلك ان القائمين على المؤسسات البنيوية الرسمية خلال العقود الماضية لم يولوا العامل الثقافي الاهتمام الذي يستحق، واقتصار ذلك الاهتمام على تشكيل ثقافة تتوافق مع طبيعة الايديولوجيا الحاكمة، ما انتج ثقافة أحادية افتقدت للميكانزمات التي تتيح لها الرسوخ العميق في عقول الجماهير ونفوسهم، او الانشغال بما يرونه أكثر أهمية، او الجهل بتأثيراته المحتملة، بخاصة انه من العوامل ذات الإنتاجية الآجلة، وبذا أصبح المجتمع من الهشاشة بمكان جعله عرضة لثقافات عشوائية غالبا ما كانت غير مستنيرة أسهمت في بلورتها معطيات التخلف بمختلف أشكاله. كما ان حالة الانغلاق التي عاشها المجتمع جراء الحروب والحصار وتدهور علاقات العراق مع الاسرة الدولية ، لم تتح له مواكبة النمط الثقافي الذي تبلور خلال العقود الاخيرة في العالم ، وظل حبيس ثقافة متخلفة تنهل من القيم السائدة في الواقع وتلك التي تعود الى ازمنة ماضية ، فضلا عن تلك التي اريد لها الشيوع ، كل ذلك حال من دون ان تتشرب الثقافة السائدة المفاهيم الحديثة التي تولدت نتيجة المتغيرات السياسية والثقافية والتكنولوجية التي شهدها العالم .

ان ثقافة سائدة مليئة بالامراض المزمنة والعناصر المتزمتة ليس من السهل التعاطي معها ، وبالتالي فان تغيير ثقافة متخلفة باخرى مستنيرة تتضمن المفاهيم المستحدثة بمختلف اشكالها يعد امرا في غاية الصعوبة، وفي الوقت نفسه تقتضي زمنا ليس بالقصير في حال رسمت لها الاستراتيجيات المناسبة ،ذلك ان هذا النوع من الثقافة يتسم بالصلادة ، وبعضا من عناصره قد تكون عصية على التغيير[١٧]،الامر الذي يجعل منها تحديا كبيرا امام عمل مؤسسات التنشئة بضمنها الاعلام .

هـ غياب الضوابط الاعلامية

استخدمت التيارات السياسية والثقافية المتصارعة في العراق أنماطاً اتصالية مختلفة بضمنها الاتصال الجماهيري بوصفه النمط الاتصالي الأكثر تأثيرا من الأنماط الأخرى، مستثمرة أجواء الانفلات الاعلامي الذي غابت عنه التشريعات الضابطة للعمل الاعلامي ، الامر الذي جعل الجماهير أمام وسائل إعلامية تعمل على هواها، وتروج لثقافات تتعارض بعض مضامينها مع مفاهيم الديمقراطية والثوابت الوطنية، فضلا عن إعلاء شأن ثقافات فئوية ضيقة على حساب الولاء الوطني بوصفه المشترك الذي من شأنه الحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعي،ولذلك يمكن الجزم ان مشروع التغيير لن يحصل في المدى المنظور على اقل تقدير ، بسبب استمرار التناحر الثقافي والتصارع السياسي بين القوى السياسية والثقافية العراقية من جانب ، وعدم ضبط الاعلام بتشريعات تتلاءم مع ثقافة التغيير من جانب اخر[١٨] ، ذلك ان العمل الاعلامي كأي مهنة أخرى يمكن ان تتميع مساراته تبعا للأهواء والأوهام، وعليه تغدو الضوابط حاجة أساسية لتوظيف الإعلام في خطط التنمية الثقافية[١٩] .

وقد أثبتت التجربة في اكثر من بلد ان غياب التشريعات والمواثيق تجعل من الاعلام أداة فرقة[٢٠] ، بينما نريد له ان يكون أداة لترسيخ الوحدة الوطنية وتحصين الجماهير إزاء جملة التحديات التي افرزها الاحتلال.

و ـ تدني مستوى ثقافة القائم بالاتصال

لايمكن لوسائل الاعلام ان تنجح في حث المجتمع على تبني ثقافة التغيير ، وتحويله الى اداة فاعلة في صناعة التغيير ، مالم يتمتع القائمون على هذه الوسائل بثقافة رفيعة مدركة ومؤمنة بأهمية التغيير ، ذلك ان الثقافة تشكل اطارا عاما للقائم بالاتصال تتيح له رؤية الاحداث والوقائع والقضايا من زوايا مختلفة[٢١] ، والتعرف الى ابعاد قد تكون مغايرة لتلك التي يتوصل لها اخرون ، فضلا عن تمكينه من كشف حالات التضليل التي يتعرض لها المجتمع ، و تعزيز قدراته في توظيف الفنون الاعلامية بطاقتها القصوى ، من خلال ايجاد طرق واساليب جديدة لمعالجة مضامين رسائله واشكالها[٢٢] ، وبدونها (أي الثقافة) تتضح جوانب القصور جلية في تلك الرسائل .

ومع ان الاعلام يعد مكانا للنخبة ، الا ان الاعلام العراقي غدا مكانا لذوي الثقافات المتدنية الذين لاتختلف ثقافتهم عن ثقافة الجمهور العام بشيء ، بينما يراد لممسكي هذه الوسائل ثقافة متقدمة على ثقافة المجتمع ليتسنى لهذه الوسائل الارتقاء بالمجتمع نحو افاق رحبة.

وكان مستوى الثقافة معيارا لامكانية العمل في الميدان الاعلامي من عدمها ، لكن بعض القائمين على الوسائل الاعلامية غضوا الطرف بحدود كبيرة عن هذا المعيار ، الامر الذي قد يفضي الى نتائج خطيرة بدأنا نتلمس بعضا من ملامحها في السنوات الاخيرة ، ذلك ان ذوي الثقافات المتدنية غير قادرين بالمطلق على انتاج رسالة اعلامية بمواصفات من شأنها حمل الجمهور على التفاعل معها والتأثر بها ، واذا حدث ذلك فأنها سترجع بالمجتمع خطوات الى الخلف بسبب من ضحالة هذه الثقافة .

ز ـ غياب الاعلام التنموي

من الحقائق التي اكدتها الادبيات الاعلامية على اختلاف مناهجها ونظرياتها الدور الفاعل والواضح للاعلام في تنمية المجتمعات ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، الامر الذي قاد الى ماسمي بـ (الاعلام التنموي) الذي شغل مساحة كبيرة من اهتمام الباحثين والدارسين خلال العقود المنصرمة تأصيلا وتنظيرا [٢٣] ، وكان ذلك في جانب منه انعكاسا لمشاغل منظمات دولية اقلقتها حركة التنمية البطيئة في دول العالم النامي ، و البحث عن السبل الكفيلة بتنشيط تلك الحركة ، الامر الذي حمل بعضهم على التعميم بان مفتاح ذلك يكمن في الاعلام[٢٤].

وفي سماوات مفتوحة واتصال جماهيري تفاعلي متزامنا مع اهتمام عالمي بحق الاتصال وديمقراطية الاعلام ، تراجعت الوظيفة التنموية للاعلام بينما اتسعت الوظيفة السياسية و الترفيهية والاعلانية[٢٥] .

وعلى الرغم من ان المشهد الاعلامي العراقي يعج بعشرات الفضائيات ومثلها من الصحف والاذاعات ،الا ان المضامين التنموية قد غابت في اغلبها ، ولم تأت في بعضها الاخر

الا في مؤخرة المشاغل ، ومثل هذا الواقع ليس بغريب على المعنيين بالاعلام ، ذلك ان مناخ المنافسة بين وسائل الاعلام يدفع الكثير منها الى التميع مع رغبات الجمهور الباحث في غالبيته عن مضامين الترفيه والتسلية[٢٦] ، وبخاصة في الوسط الجماهيري القلق كالجمهور العراقي الذي يسوده قلق سياسي واجتماعي وامني واقتصادي ، اذ تلقي هذه البيئة بظلالها على الحركة الاعلامية وطبيعة المضامين المبثوثة .فتفّعل الوظيفة الترفيهية و السياسية الى اقصاها على حساب الوظائف الاخرى بضمنها التنموية .

ان اعلام التنمية في العراق يواجه تحديات كبيرة ، ابرزها البدائل الاعلامية المتاحة للجمهور ، وفي وسط جماهيري لم تشبع حاجاته الاعلامية بعد كالجمهور العراقي تكون البدائل الاعلامية الوافدة عائقا في سبيل تعرضه لوسائله المحلية .

ويدرك القائمون على الوسائل الاعلامية العراقية تلك التحديات ، ويعرفون ان بث المضامين التنموية بسماتها الفنية الحالية قد يدفع جمهورها الى اللجوء الى بدائل اخرى ، وبذا فهي غير مستعدة للخوض في مجال يفقدها جمهورها ، وربما يتعذر اصحاب الوسائل الخاصة بان الاهداف التنموية ليست من بين الغايات التي تشكلت على اساسها تلك الوسيلة ، وان ذلك يعد من مسؤوليات الوسائل الاعلامية الرسمية ، اي تلك التي تتبع الدولة ، فضلا عن ان انتاج المضامين التنموية مكلف ماديا اذا ما اريد لها ان تكون جذابة ومشوقة . وعلى وفق ذلك من غير المتوقع من الوسائل الخاصة القيام بمثل هذه المهمة ، بمعنى انها تقع على عاتق الاعلام الرسمي . ان اقتصار المبادرة على الاعلام الرسمي كما تؤشر ذلك المعطيات الراهنة لن يحقق الغايات المنشودة ، وعليه لابد من دور للاعلام الخاص بهذا الشأن.

ان صناعة مضامين تنموية فاعلة ومؤثرة تقتضي خبرات فنية كبيرة وتقنيات متطورة وامكانات مالية عالية ، وبعكسه لايمكن لبرامج تقليدية ان تحدث الاثر المطلوب ، لكن هذه المستلزمات غير متوفرة في الوقت الراهن بشكلها المتكامل في الاعلام العراقي .

ح ـ ضعف الايمان برسالة الاعلام

لقد وصف الاعلام بأنه رسالة ، وهذا يقتضي من بين ما يقتضيه مستوى كبيرا من الشغف والانغماس بالمهنة ودورها ، بوصف الانغماس ارتباطا شخصيا بالقضية ووسائل اشاعتها ، الامر الذي يزيد من دافعية القائم بالاتصال وقدرته على معالجة الرسائل الاعلامية ومعرفة نقاط القوة والضعف فيها[٢٧] ، وعلى وفق هذا الوصف لابد ان يحدد القائم بالاتصال الاهداف الانسانية والمعرفية التي يريد تعزيزها او غرسها في الجمهور بغية الارتقاء بالمجتمع ، وهكذا كانت البدايات الاولى لظهور الصحافة في منطقتنا ابان النهضة العربية منذ اواخر القرن التاسع عشر التي اسهمت على الرغم من امكانياتها المحدودة بقدر لايستهان به في بلورة وعي عميق ازاء الواقع وآليات التعامل مع الماضي والركائز التي يفترض الاستناد لها في التطلع الى المستقبل،لكن الايمان برسالة الاعلام لم يعد قائما في الحركة الاعلامية العراقية الا في نطاق ضيق ، وتحول الاعلام من كونه رسالة بحد ذاته الى مجرد وسيلة لتحقيق اهداف خاصة لسياسيين ورجال مال وغيرهم من الذين لاتعني لهم رسالة الاعلام شيئا بقدر تحقق اهدافهم بصرف النظر عن الخسائر التي تطول المجتمع ، ومثل هؤلاء يجهلون معايير جودة الرسالة الاعلامية وطرق تحققها وسبل اقناع الجمهور بها ، ولايعيرون اهتماما للجوانب المهنية التي

يقتضيها هذا المجال ، بخاصة ان اغلب الوسائل الاعلامية صارت اليوم جزءا من ممتلكات هذه الشرائح ، بينما اقصيت النخبة الثقافية الحقيقية وليست الوهمية عن هذا الميدان ، بسبب من افتقادها المال اللازم ، او النأي بنفسها بعيدا عن مجال صار ميدانا لصراعات سياسية او لجوانب رخيصة وغيرها مما لايتناسب مع ما يشغل هذه النخبة .ان الايمان برسالة الاعلام الانسانية من شأنه حث القائمين بالاتصال على المزيد من العناية بمضامين رسائلهم الاعلامية ، لانهم يعلقون امالا كبيرة على التأثيرات التي تحدثها لاكساب الجمهور الثقافة النوعية بضمنها ثقافة التغيير الكفيلة برقي المجتمع .

ط ـ ضعف الشعور بالانتماء الوطني

لايمكن لاي دولة ان تمضي قدما في مسيرة التنمية من دون مجتمع حيوي وفاعل ، لكن فاعلية المجتمع وحيويته لاتنطلق من فراغ ، بل هي مرتبطة ايما ارتباط بمستوى الشعور بالانتماء الوطني ، الذي يشير الى مشاعر الولاء الايجابية التي تتملك الافراد تجاه اوطانهم وشعوبهم بالشكل الذي تبث الحماس فيهم وتجعلهم مستعدين للتضحية بانفسهم في سبيل الدفاع عن الوطن وارتقاء المجتمع ، ذلك ان الانتماء يؤثر في طريقة التفكير او التفاعل مع العالم المحيط بالفرد[٢٨]. وبالرغم من ان حب الاوطان راسخ في الوجدان بالفطرة، لكن ذلك لايعني ان الشعور بالانتماء لايتراجع او يضعف ، ذلك ان هذا الشعور يستمد مقوماته من منابع عديدة يشكل حب الاوطان واحدا منها ، فضلا عما تقدمه الدولة لمواطنيها من حوافز مادية ومعنوية بما يوفر حياة رغيدة وكريمة ، وكذلك مجموعة العلاقات الاجتماعية التي تربط الافراد بالبيئة الاجتماعية ، والضمانات الواقعية للحريات العامة والخاصة وما يتعلق بها من حقوق .

واذا كان تنمية وتعزيز الشعور بالانتماء الوطني لدى المواطنين من الامور التي يفترض بوسائل الاعلام القيام بها ، فكيف الحال اذا كان هذا الشعور المتراجع هو السائد في الوسط الاعلامي ، اذ افادت الملاحظات الميدانية للحركة الاعلامية بعد استلام العراقيين للسلطة من القوات الامريكية، ان مشاعر الانتماء الوطني قد تراجعت كثيرا في الوسط الاعلامي ، وقد تجلى ذلك واضحا في الرسالة الاعلامية لتلك الوسائل .

ي ـ اتساع سلوك اللامبالاة

تذهب اللامبالاة الى عدم الاهتمام ، وتشير في جانبها السياسي الى خفوت الشعور بالانتماء ، وبالتالي يقود الى فقدان الاحساس بالمسؤولية ، وعدم الالتزام بالواجبات المنوطة بالافراد ، وعدم الرغبة في مشاركة الاخرين بعملية اتخاذ القرارات التي تهم المجتمع ، وتتولد اللامبالاة نتيجة مجموعة الاحباطات التي يتعرض لها الافراد ما يدفعهم الى عدم الاهتمام بالبيئة المحيطة بهم ، والتغاضي عن السلبيات وعدم المساهمة في معالجتها ، وضعف الحماس لتغيير الواقع ، اذ ينتاب الافراد شعور بعدم جدوى ما يقومون به[٢٩] ، وبالتالي تعثر احداث تنمية نوعية في مجتمع يفتقد الى الدافعية بسبب من لامبالاته ، ولذلك يعد شيوع اللامبالاة في المجتمع من الامور التي تقلل من حيوية المجتمع التي تحتاجها عملية التغيير والتنمية .

ولم يستثن العاملون في المؤسسات الاعلامية من هذا السلوك بوصفهم جزءا من المجتمع ، ويتعرضون لذات الظروف التي يتعرض لها ،فضلا عن طبيعة الظروف التي يعملون بها في

المؤسسات الاعلامية ومستوى الرضا عن مؤسساتهم وغيرها من العوامل ، ومن المؤكد ان هيمنة اللامبالاة على السلوك الاعلامي له تداعيات كثيرة من بينها عدم الاهتمام بجودة مضمون الرسالة الاعلامية وشكلها ،ما ينعكس سلبا على فاعليتها ، وعدم ايلاء الاهداف بضمنها تشكيل ثقافة التغييرالاهتمام الكافي ، وبالتالي يغدو العمل الاعلامي روتينا من دون جدوى .

ك ـ الشعور بعدم مصداقية وسائل الاعلام

لن يتفاعل الجمهور او يتبنى الافكار والعناصر الثقافية التي تشعيها الوسيلة الاعلامية ، مالم تتمتع تلك الوسيلة بثقته ، كما لا يمكن للوسيلة ان تحوز على ثقة الجمهور مالم تتمتع بقدر عال من المصداقية ،ذلك ان الوسائل التي تشعر الجمهور بمصداقيتها ، تكون الاكثر تأثيرا من غيرها ، فالعلاقة بين التأثير والمصداقية علاقة عضوية[٣٠] ، لذلك تجهد جهات الاتصال المختلفة على خلق انطباعات في اذهان الجمهور بمصداقيتها ، سواء بالالتزام الشديد بالمعايير المهنية ، او باستخدام الحيل الاعلامية وغيرها من الطرق .

وبالرغم من ان وسائلنا الاعلامية ترغب بأن تكون مصداقيتها عالية لدى الجمهور ، الا ان شعورا طاغيا في اوساط الرأي العام العراقي بأنها تفتقد الى المصداقية ، ويعود هذا الشعور السائد الى جملة من الاسباب ، بعضها يرتبط بخبرات الجمهور السابقة يوم كان الاعلام العراقي يعبر عن توجهات احادية تتمثل في الاطر الفكرية التي كان يستند اليها النظام السابق ، اذ كانت غالبية الجمهور تستقي معلوماتها من قنوات اعلامية اجنبية ، وكانت لهذه الاحكام امتدادات شملت النظام الاعلامي الراهن ، كما ان التناقضات الاعلامية التي وقعت فيها الحركة الاعلامية بعد سقوط النظام ، والنظرات غير المتوافقة للاحداث السياسية ، والتوجهات المتباينة التي انطلقت منها ، جميعها خلقت انطباعات لدى الجمهور بان الرسائل الاعلامية المبثوثة غير دقيقة وتعبر عن مصالح ضيقة للاحزاب والتيارات السياسية المالكة لتلك الوسائل ، وان مصداقيتها خفيضة . لذلك شكل شعور الجمهور بعد مصداقية وسائلنا الاعلامية واحدا من التحديات التي تقف عائقا امام تلك الوسائل اذا ما ارادت العمل من اجل التغيير .

ل ـ الانشغال بثقافة الماضي واهمال ثقافة المستقبل

يعد نقل التراث الاجتماعي عبر الاجيال من بين الوظائف الاساسية التي تقوم بها وسائل الاتصال الجماهيرية [٣١] ، ومع اهمية تقديم اطر مرجعية للمجتمع ، لارتباط ذلك بالحفاظ على هوية الامة وشخصيتها ، انطلاقا من ان الامم تعرف بهوياتها وتغيب شخصيتها المميزة في حال افتقدت تلك الهوية ،الا ان الوسائل الاعلامية العراقية بالغت كثيرا بالاهتمام بثقافة الماضي ، فغرفت ما استطاعت منذ تشكلت وحتى اللحظة ، فنجحت في جوانب واخفقت في اخرى ، وغالبا ما عزي الاخفاق الى سوء الانتقاء ، ذلك ان حوادث الماضي وعناصره الثقافية ليست بالضرورة جميعها صالحة للحاضر ومفيدة للمستقبل .

واذا كان ماضي الامة مهما ، فان المستقبل اكثر اهمية ، ذلك ان الامم تحيا للمستقبل وليس للماضي ، لذلك كان في مقدمة الاخطاء الجسيمة انشغال الاعلام العراقي الكثيف بالماضي

واهمال المستقبل ، فكثيرا ما عزز قيما قديمة من دون ان يكون بمقدوره استحداث قيم جديدة تشكل هويتنا المستقبلية ، مع ان القائمين على وسائل الاعلام يفترض ان يكونوا اكثر الشرائح الاجتماعية وعيا بالمستقبل ، واكثرهم ادراكا لاهمية الاستعداد له وضرورة تشكيل وعي مستنير بطبيعته وسماته المحتملة .

ومع اننا نأمل بمستقبل مشرق لهذه الامة ، الا ان وعيا بذلك المستقبل لم يتبلور بعد في اذهاننا وابرز معيقات ذلك ، ان حاضرنا متاثر بماضينا بلا حدود ، بل ان الماضي حاضر في حياتنا بقدر مواز او يفوق الحاضر نفسه ، حتى ان المرء يشعر في غالب الاحيان انه يحيا في الماضي[٣٢] ، فجل الثقافة الفاعلة في الواقع مستمدة من الماضي .

وفي الوقت الذي عمل الاعلام العراقي فيه على تعزيز السائد من القيم ، ترك القيم الجديدة تتشكل كيفيا ،والغريب في الاعلام العراقي ان غالبيته اعلام خنوع لضغوطات الواقع ، وبخاصة تلك الضغوط التي تستمد مشروعيتها من الانتساب الى الماضي بأبعاده المختلفة الايجابي منه او السلبي من دون ان تكون له قدرة التمرد على عناصر ثقافية يعرف القائمون عليه تمام المعرفة انها ماعادت صالحة للمستقبل . ان السؤال الاهم هو كيف نشكل ذهنية مواكبة الاخر ومغادرة ذهنية مغايرته ، فالمغايرة لاتعني سوى زج الامة في صراعات لن تجني منها الا مزيدا من التخلف ، بخاصة ان جميع معطيات ثورة الاتصال تنحو باتجاه تمييع الثقافات الوطنية في اطار ثقافة عالمية لها خصائص القوى المهيمنة اتصاليا[٣٣] ، بكل ما ينطوي عليه هذا الامر من ابعاد ودلالات يعرفها كثيرون .

ان عدم ايلاء الوسائل الاعلامية العراقية الاهمية الكافية لقيم المستقبل المحتملة قد يزيد من مساحة التناقضات التي يتسم بها سلوك الجمهور ، وهذا يقتضي العمل على تكييف منظومتنا الثقافية بتبديل او اهمال بعض من عناصرها لكي يكون بالمستطاع التهيؤ للمستقبل الذي لابد من التهيؤ له .

م ـ الاهتمام بالسطحي وتهميش العميق

ان التأثيرات التي يتطلع القائم بالاتصال الى احداثها في الجمهور بدفعه الى تبني استجابات جديدة او تدعيم استجابات قائمة او تعديل بعضها ، لن تحصل ما لم يول رسائله العناية التي تستحق على مستوى الشكل والمضمون . فما يتعلق بالمضمون لابد ان تشبع الرسالة جانبا من الحاجات الاعلامية للجمهور والمتمثلة في الحاجات المعرفية والوجدانية والشخصية والاجتماعية وما يعينه على الهروب من واقعه[٣٤] ، اما على مستوى الشكل فان ذلك يرتبط بمهارة القائم بالاتصال ، وتمكنه من الفنون الاعلامية ، والى اي مدى يكون بمقدوره الارتقاء بالعملية الاعلامية الى ان تكون فنا يتوافر على الجاذبية والتشويق ، فاذا لم يتحول الاتصال ايا كان نوعه الى فن ، فان المضمون لن يصل الى المتلقي وان وصلت الرسالة ، لذلك قيل ان الاتصال هو (فن نقل المعاني)[٣٥] .

ومع ان الجمهور العراقي يتعرض اليوم الى سيل كبير من الرسائل الاعلامية ، لكن القليل من هذه الرسائل تتسم بجودة مضمونها، ما قلل من تأثيرها في الوسط الجماهيري ، وغدت

اشبه بالثرثرة الاعلامية منها الى الرسالة المسؤولة التي تنطوي على اهداف يراد بها اشباع الحاجات الحقيقية للجمهور ، الامر الذي يشكل تهديدا لعملية التنمية التي يحتاجها المجتمع حاليا.

ان معطيات المرحلة الراهنة تشير الى الحاجة الماسة لمضمون عميق من شأنه اشاعة ثقافة مستنيرة ، مستوعبة لتحديات المصير ، ومنطلقة من رؤية واضحة لكيفية الدخول الى المستقبل . فضلا عن قدرتها على التعاطي مع المتغيرات التي تشهدها المنطقة ، بالشكل الذي يفعّل ويمكّن المورد البشري من القيام بادوار فاعلة في عمليات التنمية المستدامة . وبعكسه فان المضمون السائد لن تكون حصيلته سوى التسطيح الثقافي والمزيد من التخلف عن ركب الحضارة .

الاستنتاجات

١ ـ مع ان الاعلام العراقي يشترك مع الاعلام العربي في الكثيرمن المعوقات التي تعترض عملهما في تشكيل ثقافة التغيير ، الا ان الاعلام العراقي يتفرد بمجموعة من المعوقات التي فرضتها خصوصية الثقافة السائدة والظروف السياسية المتأزمة التي عاشها العراق خلال العقود الخمسة الاخيرة ، وبخاصة المدة التي اعقبت الاحتلال الامريكي .

٢ ـ ان اشاعة ثقافة التغيير التي ينتظر من الاعلام القيام بها في العراق مهمة عسيرة للغاية وتتطلب زمنا طويلا وجهدا حثيثا وكلفا باهظة ،وذلك بسبب جسامة المعوقات التي تعترض الدور الاعلامي في هذا الشأن ، والخلل الواضح في بنية الاعلام العراقي ، ونظن ان الخطوة الاولى والاساسية لممارسة دور اعلامي في اطار ثقافة التغيير تنطلق من اصلاح المنظومة الاعلامية .

٣ ـ تبين ان اغلب الاعلام العراقي لم يتحمل مسؤولياته الوطنية في المفترقات الحاسمة التي مرت بها البلاد ، اذ كان كثير منه تحريضيا ، ومشيعا للكراهية ، ومتميعا مع الخطاب السياسي بصرف النظر عن نوع ذلك الخطاب ومدى خدمته للمجتمع والدولة ، ومتهاونا مع التحديات المصيرية التي تتعرض لها الامة العربية ،وبدل ان يعمل على تحقيق وظائفه ومنها تشكيل ثقافة التغيير، جرى توظيفه سياسيا وثقافيا واجتماعيا من القوى الفاعلة في المشهد العراقي بعد الاحتلال، ومن ذلك التوظيف ما كان يراد به عزل العراق عن محيطه العربي .

٤ ـ مع ان التعددية الاعلامية تعد مظهرا من مظاهر الديمقراطية ، وتتيح لحق الاتصال تجسيدا فعليا ، لكنها بالمقابل تعمل بشكل او باخر على تفعيل وترسيخ ثقافات فرعية اوفئوية او ضيقة ، الامر الذي يجعل من هذه الثقافات في احيان كثيرة عقبة كأداء امام تشكل ثقافة وطنية شاملة ، بخاصة ان عمليات التغيير على اختلاف اشكالها لن تتحقق من دون هذه الثقافة .

٥ ـ اتضح ان فاعلية وتأثير الخطاب الاعلامي التنويري يتوقف على نوع البيئة التي يعمل في ظلها فيما اذا كانت مستقرة او متأزمة ، اذ يتعذر على الخطاب الثقافي التنويري من اجل التغيير

ان يأخذ مدياته الحقيقية في البيئات المتأزمة ، لتعارض مضامينه مع خطابات لجهات متنفذه وبعضا منها جماعات عنفية ، يخشى الاعلاميون حملة مشروع ثقافة التغيير الاصطدام بها خوفا على حياتهم .

٦ ـ اتضح عدم فاعلية اخلاقيات العمل الاعلامي في ضبط الحركة الاعلامية بالقدر الكافي عندما تغييب الضوابط والتشريعات القانونية الصادرة عن مؤسسات الدولة ، ذلك ان غياب الضوابط يقود الى اعلام منفلت يعمل على هواه ، ويعبر عن مصالح قوى متنفذة من دون مراعاة للمصالح والثوابت الوطنية .

٧ ـ تبين ان التعددية الاعلامية في المجتمعات حديثة العهد بالديمقراطية والتي لاتتوافر مجتمعاتها ونخبها السياسية على ايمان حقيقي وثقافة مستنيرة متوافقة مع متطلبات النظام الديمقراطي ، يكون لها تأثيرات سلبية خطيرة كتفتيت النسيج الاجتماعي ، واتخاذها اداة لادارة الازمات والصراعات ، وبوابة لتدخل اطراف اجنبية في الشأن المحلي ، وبالتالي انحراف العمل الاعلامي نحو مسارات تتناقض مع اهدافه الحقيقية التي يشكل تغيير الواقع نحو الافضل احد ابرز تلك الاهداف .

٨ ـ اذا كان عدم الاحتكام الى العلم في النظرة الى الماضي والحاضر يدفع بالمستقبل الى الهاوية ، فأننا مقبلون على مستقبل قد يكون اسوأ من الحاضر ، ذلك ان الاعلام يشترك مع مؤسسات التنشئة في عدم تبلور منظور علمي واضح للتعامل مع قضايا الماضي والحاضر والمستقبل ،ففي الوقت الذي شغلت ثقافة الماضي واحداث الحاضر مساحة من اهتمامه وبطريقة كيفية وعشوائية ، فضلا عن هيمنة منظورات ايديولوجية دينية وسياسية ، نجده قد اهمل ثقافة التغيير التي هي ثقافة المستقبل ، ويبدو ان جانبا من ذلك الاهمال يعود الى الجهل بهذه الثقافة .

٩ ـ تبين ضرورة ان يخضع الاعلام في البلدان التي تشهد تحولا سياسيا من انظمة شمولية الى اخرى ديمقراطية كالبلدان العربية ، الى مرحلة انتقالية تتاح فيها الفرصة للجهات العليمة ان تنظم الحركة الاعلامية بما يتوافق مع هذا التحول ، وبعكسه ستشهد تلك البلدان فوضى اعلامية ، مايشكل احد العوائق المؤثرة في عملية التحول .

١٠ ـ يقتضي تشكيل ثقافة التغيير تعبئة الجهد الاعلامي ، الا ان ذلك يكاد يكون مستحيلا في البيئات التي تشهد تأزما سياسيا كالعراق ،اذ يصنف الاعلام الى ثلاثة انواع اعلام حزبي وهوالاعلام المهين ، واعلام مستقل تنتاب اغلبه ميول الى هذا الطرف السياسي او ذاك ، واعلام دولة لم يبلغ بعد اشده بسبب ارتباك العملية السياسية وتعثرها ، وفي مثل هذه الحالات فان امر هذه الثقافة منوط باعلام الدولة الذي يفترض ان يكون اكثر عددا وانتشارا من النوعين المذكورين .

١١ ـ بالرغم من قساوة البيئة العراقية المتأزمة وخطورتها ، الا ان الاعلام العراقي تمكن من الصمود امامها ، وواصل مسيرته في اطلاع الجمهور على الحقائق والوقائع وان اعترت مسيرته مثالب عديدة وبخاصة في المجال الثقافي والتنموي .

هوامش البحث ومصادره

١ ـ انظر بهذا الخصوص : محاضرة عبد الحميد عبد المجيد ، التغـــــــــيير

مفهومه/ أسبابه/ أهدافه/ قادته/ مقاومته ، المنشورة على موقع جامعة ام القرى ، uqu.edu.sa/page/ar/9668 ، استرجعت بتاريخ ١٣ / ٨ / ٢٠١٢ ، وكذلك صبري محمد خليل ، قضايا التغيير ومفهوم المفاضلة ، المنشور على موقع سودانايل ، www.sudanile.com، استرجع بتالريخ ١٣ / ٨ / ٢٠١٢.

٢ ـ صالح خليل ابو اصبع ، الاتصال والاعلام في المجتمعات المعاصرة ، ط٥ ،عمان ، دار مجدلاوي ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨

٣ ـ جون ديوي ، الحرية والثقافة ، ترجمة امين مرسي قنديل ، القاهرة ،مكتبة الانجلو المصرية ، بدون تاريخ ، ص٣١

٤ ـ سمير محمد حسين ، بحوث الاعلام : الاسس والمبادىء ، القاهرة ، عالم الكتب ،١٩٧٦ ، ص ١١٩

٥ ـ محمد منير حجاب ، اساسسيات البحوث الاعلامية والاجتماعية ،ط٣ ، القاهرة ، دار الفجر الجديد ،٢٠٠٦ ، ص ٧٠

٦ ـ شيماء ذو الفقار زغيب ، مناهج البحث والاستخدامات الاحصائية في الدراسات الاعلامية ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٠٥

٧ ـ شيماء ذو الفقار زغيب ، نظريات في تشكيل اتجاهات الرأي العام ،القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٤ ،ص ١١١

٨ ـ راسم محمد الجمال ، الاتصال والاعلام في الوطن العربي ، ط٢ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ،٢٠٠١ ،ص ١٠٦ و١١٢

٩ ـ الاحصائية المعلنة لمرصد الحريات الصحفية في العراق ، www.jfoiraq.org ، استرجع بتاريخ ١٤ / ٨ / ٢٠١٢ .

١٠ ـ ويلبر شرام ، وسائل الاعلام والتنمية القومية ، ترجمة اديب يوسف شيش ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٦٩،ص ٤٢٧

١١ ـ بشرى جميل الراوي ، متطلبات الابداع الاعلامي العربي في البرامج ، مجلة الباحث الاعلامي ،العدد ٨ ، كلية الاعلام / جامعة بغداد ، ٢٠١٠ ، ص ١٩٨

١٢ ـ مؤيد الخفاف ،الصحافة العراقية في عامين : من ٩ / نيسان وحتى نيسان ٢٠٠٥ ، مجلة الباحث الاعلامي ، العدد ٢ ، كلية الاعلام / جامعة بغداد ،٢٠٠٦ ، ص ٤٧ ـ ٤٨

١٣ ـ مي العبد الله ، التلفزيون وقضايا الاتصال في عالم متغير ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ٢٠٠٦ ،ص ١٢١

١٤ ـ محمد عبد الحميد ، نظريات الاعلام واتجاهات التأثير ، ط٣ ،القاهرة عالم الكتب ، ٢٠٠٤ ،ص ٧٢

١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٥٢

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص٧٠ ـ ٧٢

١٧ ـ هادي نعمان الهيتي ، اشكالية المستقبل في الوعي العربي ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٣ ، ص ١٦٣

١٨ ـ مؤيد الخفاف، مصدر سابق ، ٥٣

١٩ ـ ويلبر شرام ، مصدر سابق ، ص ٤٣٠

٢٠ ـ صالح خليل ابو اصبع ، مصدر سابق ، ص٢٠٣

٢١ ـ حسن عماد مكاوي ، ليلى حسين السيد ، الاتصال ونظرياته المعاصرة ،القاهرة ، الدارالمصرية اللبنانية ،٢٠٠٨ ، ص ١٧٩

٢٢ ـ عبد العزيز شرف ، نماذج الاتصال في الفنون والاعلام والتعليم وادارة الاعمال ،القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٣ ،ص ١٩٨

٢٣ ـ ويلبر شرام ، مصدر سابق ، ص ٣٩٩

٢٤ ـ انظر بهذا الخصوص ، المصدر السابق ، ص ٣و٤

٢٥ ـ عبد الله بن مسعود الطويرقي ، صحافة المجتمع الجماهيري : سوسيولوجيا الاعلام في مجتمعات الجماهير ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٩٩٧ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣

٢٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٣

٢٧ ـ شيماء ذو الفقار زغيب ، نظريات في تشكيل اتجاهات الرأي العام ، مصدر سابق ، ص ٢١٩

٢٨ ـ محمد عبد الحميد ، مصدر سابق ، ص ١٦٤

٢٩ ـ سامر جميل رضوان ، الاهتمام واللامبالاة ،مقالة منشورة على موقع الباحث العلمي ، www.alba7es.com ، استرجعت بتاريخ ١٥/ ٨/ ٢٠١٢ .

٣٠ ـ محمد بن عبد الرحمن الحضيف ، كيف تؤثر وسائل الاعلام : دراسة في النظريات والاساليب ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٩٩٨ ، ص ٤٩

٣١ ـ حسن عماد مكاوي ، ليلى حسين السيد ،مصدر سابق ،ص ٧١ ـ ٧٢

٣٢ ـ هادي نعمان الهيتي ، مصدر سابق ، ص ٢٢

٣٣ ـ عبد الله بن مسعود الطويرقي ، مصدر سابق ، ٢٢٥

٣٤ ـ دنيس ما كويل ، الاعلام وتأثيراته : دراسات في بناء النظرية الاعلامية ، تعريب عثمان العربي ، الرياض ، دار الشبل ، ١٩٩٢ ،ص ٤٣ ـ٤٤

٣٥ ـ حسين الخزاعي ، مهارات الاتصال في الخدمة الاجتماعية ، عمان ، دار البركة ، ٢٠٠٤ ، ص ١٩٥